انحراف المواهب

للأستاذ أنور المعداوي

قلت فى عدد مضى وأنا فى معرض الحديث عن الشخصية الأدبية إن من عناصر هذه الشخصية أن يعرف الكاتب أين يضع مواهبه ، فلا يدفع بها إلى ميدان لم تخلق له ، وأين يركز ملكاته فلا يوجهها التوجيه المقيم الذى لا ينتج ولا يثمر ؛ عندئذ يجدى التركيز حيث لا يجدى التشتيت ، ويغنى الجهد الذى يبذل فى مكانه عن الجهد الذى يبذل فى غير مكانه .. هذا الناثر الذى يعالج نظم الشعر فيخفق ، وهذا الشاعر الذى يحاول كتابة القصة فلا يوفق ، وهذا القاص الذى ينحرف بريشته إلى النقد الأدبى فلا يخرج بشىء .. كل هؤلاء ينقصهم هذا العنصر من عناصر الشخصية الأدبية ، عنصر الدراسة الخاصة لتقسيم المواهب والملكات ! .

كلمات قلتها بالأمس وما أحوجها اليوم إلى شىء من الإفاضة والتطبيق ، والخروج بها من دائرة انحراف المواهب فى ميدان خاص إلى انحرافها فى ميدان آخر يتسع فيه المدى ، ويرحب الأفق ، ويمتد مجال البحث والدراسة ، وترد فيه الظواهر المحسوسة إلى ما خفى من الدوافع والأسباب ...

جورج ديهامل الكاتب الفرنسى الكبير وعضو الأكاديمى فرانسيز ، كان يعمل فى الحرب العالمية الأولى كطبيب فى المستشفيات الحربية ، وهو من الذين درسوا الطب فى بدء حياتهم واشتغلوا بهذه المهنة جرياً وراء الكسب المادى كما يفعل الكثيرون ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها هجر ديهامل الطب إلى الأدب فنبغ فيه نبوغاً أهله لأن يكون عميداً من عمداء الأدب الفرنسى المعاصر ... ظاهرة تستوقف النظر ، وتغرى بالبحث ، وتدعو إلى التأمل والمراجعة ، وأعنى بها ظاهرة انحراف المواهب ! .

ولقد كنت أبحث هذه الظاهرة عند عباقرة ثلاثة غير ديهامل يمثلون ثلاثة ألوان من الأدب العالمى الرفيع ؛ جمع بينهم فى مستهل حياتهم ميل إلى العلم وانصراف إليه ، ثم تحولوا عنه إلى الأدب فتهيأ لهم من النبوغ فى ميدانه مالم يتهيأ لهم فى ميدان العلم ... أول هؤلاء الثلاثة وهو الشاعر الألمانى جيته ، كان عالماً يبحث فى الألوان ، ويضع الأصول للرسم والنحت ، ويعالج التأليف فى الأزهار وفلاحة البساتين . وثانيهم وهو الكاتب النرويجى إبسن ، كان فى شبابه عالماً فى الكيمياء . وثالثهم وهو الكاتب الإنجليزى ويلز درس الكيمياء أيضاً فى شبابه ، ثم

التراجم فكتب دراسات عميقة عن نابوليون ، وهند نبرغ رجل ألمانيا العسكرى ، وعن مازاريك السياسى التشيكوسلوفاكى ، وعن كليوباترا ، وعن فرانكلين روزفلت ، والرئيس بوليفار أحد كبار الشخصيات السياسية فى أمريكا اللاتينية ، وله مؤلفات عن ستالين وسيجموند فرويد — صاحب نظرية التحليل النفسانى المعروف . ولم يقتصر لودفيج على التراجم فعالج القصة والرواية والموضوعات الأدبية البحث فى النقد الأدبى ومشكلات السلوك الفردى ، فمن قصصه « الذنب والقدر » و « هبات الحياة » و « ديانا » و « عطيل » . وله أيضاً دراسة فى « العبقرية والخلق » . ودون تاريخ حياته فى كتاب دعاه « نظرة إلى الوراء »

ومن بحوثه السياسية كتاب « أحاديث مع موسولينى » « والنزر الأخلاقى لألمانيا » « وكيف تعامل الألمان » .

ومن مؤلفاته الأخيرة كتاب عن « البحر الأبيض المتوسط » ودراسته لنهر « النيل » .

وكان لودفيج يشتغل فى وضع كتاب عن الملك داود عند ما وافته المنية . ولم يترجم إلى الإنجليزية إلا القليل من أشعار لودفيج ومسرحياته التى استهل بها مطلع حياته الأدبية حتى سن الثلاثين

وكان لودفيج من مناصرى الحركة الصهيونية فى سويسرا . وقد استعمل نفوذه الأدبى فى سويسرا وإيطاليا لتسهيل النشاط الصهيونى عبر القارة الأوربية فى تجنيد الرجال والعتاد للغزوة الفلسطينية . وكان بيته فى إسكونا Ascona على الحدود الإيطالية السويسرية ملتقى رؤساء حركة التهريب الصهيونية كما ذكرت بعض الصحف الإيطالية منذ بضعة أشهر .

(نيويورك) عمر حليق

التحق بجامعة لندن ونال منها درجة فى العلوم ثم عين بها أستاذاً للباتولوجيا ! .

ليس عجيباً أن يكون الرجل متنوع المواهب فيكون عالماً وأديباً وفيلسوفاً فى وقت واحد ، ذلك لأن بعض المفكرين يمتازون بالجمع بين ألوان من العلم متعددة ، وضروب من الفن مختلفة ، لأنهم وهبوا من سعة الأفق وخصوبة الذهن وصدق الإحساس ووفرة التجارب مايؤهلهم لأن يشقوا طريقهم فى هذه الميادين جميعاً ، ولكن الشيء الذى لا شك فيه أن الموهبة الأصيلة تطبع ناحية من نواحى التفكير بطابعها القوى المتميز فتطغى على كل ما عداها من مواهب ، ويتجلى فيها الإبجاز فى أروع مظاهره وأخص مزاياه ... والدليل على ذلك أن يتحول رجل مثل جيته من العلم إلى الأدب ، فيصل بنبوغه فيه إلى الحد الذى دفع كارلايل إلى وصفه بأنه أعظم أدباء العالم بلا استثناء ، وأن يهجر رجل مثل إبسن العلم إلى الأدب ويعالج كتابة الدرامة فيعده النقاد واضع الدعامة الأولى للأدب المسرحى الحديث ، وأن يشغف رجل كوبلز بالدراسات الأدبية ، فتكون مؤلفاته فى ميدان هذه الدراسات سلمه الوحيد إلى معارج الشهرة والنبوغ !

إن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن هنا : لماذا تهيأ لهؤلاء الأدباء من النبوغ وذيوع الاسم فى رحاب الأدب ما لم يتهيأ لهم فى رحاب العلم ! .. ليس هناك غير جواب واحد هو أن مواهبهم الأصيلة كانت أدبية لا علمية ، والدليل على ذلك أنهم انحرفوا بها فى بادىء الأمر عن طريقها الطبيعى فلم تنتج الإنتاج المرتقب الذى يناسب ذكاءهم ، وذلك فى ميدان العلم ... فلما عادوا بها إلى ميدانها الأصيل وهو ميدان الأدب ، استطاعوا أن يشقوا طريقهم فى قوة حتى وصلوا إلى مرتبة الخلق والإبداع ! ومثلهم فى رأيى كمثل البذور التى يلقى بها فى تربة لا تلائم طبيعة نموها ، فهى قد تنبت وتنمو ولكنها فى الغالب لا تثمر .. فإذا ما ألقى بها فى التربة الصالحة نمت واشتدت أعوادها وأثمرت الثمر الشهى المرتقب فى مثل حالتها هذه الجديدة ، ومن الممكن أن نصف هؤلاء المبا قرة الذين تمثلت فيهم ظاهرة انحراف المواهب فى شبابهم ، بأنهم كانوا بذورا أدبية ألقى بها فى ربة العلم فلم تكتب لها الحياة

وسؤال آخر يتبادر إلى الذهن فى انتظار الجواب .. لماذا ينحرف بعض أصحاب المواهب من الأدباء والفنانين عن طريقهم الطبيعى ليسلكوا طرقاً أخرى لا يجنون من ورائها إلا بعد الشقة بين ميدان لم يخلقوا له وميدان ما كان أحوجهم إليه ؟ !

إن الجواب الذى يقبله العقل على هذا السؤال هو أن المواهب تستغل فى غير ميادينها جرياً وراء المادة .. وهذه الحضارة التى نعيش فيها حضارة قوامها المادة تبدأ منها وتنتهى إليها ، وتدفع الناس إلى أن يتلمسوا الوسائل لكسب العيش عن طريق غير طريق الأدب والفن فى كثير من الأحيان ، لأنه طريق غير مرجو الفائدة ولا مأمول العواقب فى ميدان النضال مع الحياة . ومن هنا يتجهون باستعدادهم وملكاتهم اتجاهاً يبغون من ورائه الكسب المادى والمكان المرموق ، والفن فى رأى الماديين لا يحقق لهم شيئاً من هذا ؛ وماذا تجدى الشهرة فى رأيهم مع الفاقة أو يعود عليهم من المجد وفى ركابه الحرمان ؟ !

إن صوت هربرت ريد فى كتابه « الفن والمجتمع » ليضيع وسط ضجيج المادية الأهوج حين يقول : « يجب أن ننظر إلى الفن نظرتنا إلى كل شيء لا يستغنى عنه ، مثله كمثل الخبز والماء ، وعلى أنه جزء من حياتنا اليومية لا يتجزأ ... وينبغى ألا يعامل الفن كضيف عابر ، ضيف يدفع أجر ضيافته ، ولكن كواحد من أفراد الأسرة سواء بسواء !

إن الحضارة الحديثة وتعقد مشكلاتها قد استبدت بالمواهب والعقول فوجهتها تبعاً لهذه المشكلات ، وما فيها من تعقد لم يدع لها من لحظات الفراغ ما يمكنها من استلهام الوحى فى الفنون الرفيعة .. وما أبعد الفرق بين الفنون فى ماضيها الغابر وحاضرها المشهود ! لقد كان الناس فى الماضى يعيشون للفن ويطربون له ، ويشجعون المواهب على أن تمضى فى طريقها فلا انحراف ولا اعوجاج ، وإنما اتصال مطلق بالطبيعة واستلهام لمظاهرها ورواتعها ، فلما تعقدت الحياة وطغت المادية على كل شيء طغيانها القوى الجارف انحرفت المواهب عن ميادينها الأصيلة وانحرفت معها الأذواق جرياً وراء المادة .. وماذا تجدى الشهرة كما قلت فى رأى الماديين مع الفاقة أو يعود عليهم من المجد وفى ركابه الحرمان ؟ ! .

أنور المعداوى